الفصل الخامس

"مع موريس بوكاي وخلق الإنسان والإعجاز العلمي"

obeikandl.com

obeikandl.com

أوّلًا- عرضٌ نقديّ:

سأتبع نفس طريقة عرض موريس بوكاي في كتابه "التّوراة والإنجيل والقرآن والعلم" "١" الفقرات الّتي يخصّصها منه لموضوع: "التّكاثر البشريّ" "٢"

بدايةً لنقف مع هذه الخلاصة الّتي يثبتها المؤلّف في مقدّمة الموضوع: "يذكر القرآن عن التّكاثر عباراتٍ محدّدةً لايشوب أيّ معلومةٍ منها شائبة بطلان؛ فكلّ شيء معبّر عنه بعباراتٍ بسيطةٍ سهلة الفهم، وشديدة الاتّفاق مع ما سيكتشفه العلم بعد ظهوره بزمنٍ طويلٍ" "٣"

التّعقيب:

- نقف هنا عند الصّيغة الإطلاقيّة والتّعميميّة في "فكلّ شيءٍ، لايشوب أيّ معلومة، شائبة بطلان، شديدة الاتّفاق، نقف عن مفهوم للحقيقة مُبسَّط، يختزلها فيما يتفق مع الحقيقة، أو يتناقض معها."

- هل يصحّ اعتمادًا على هذه الفقرة القول: إنّ موريس بوكاي يقول بالإعجاز العلميّ للقرآن الكريم في موضوعه التّكاثر البشريّ؟!

للإجابة على التّساؤل الأخير يُورد بوكاي:أنّ ما يقدّمه القرآن من معلوماتٍ هي: شديدة الاتّفاق مع ما سيكتشفه العلم لاحقًا بزمنٍ طويلٍ.

obeikandi.com

ومادامت هذه المعلومات معروضةً وفقًا لتعبيره: "بعباراتٍ محدّدةٍ، بسيطةٍ، سهلة الفهم، لا يشوبها شائبة بطلان." فينتج عن ذلك أنّ هذا قرينة النّسب الإلهيّ لنصوص القرآن الكريم، حيث إن العلم والقرآن يتماثلان هنا بكونهما حقيقةً، ولكن موريس بوكاي لا يشير صراحةً إلى "الإعجاز العلميّ"، وليس لنا أن نقوّله ما يتعدّى الدّلالات الّتي عرضها، رغم أنّ كتاباتهُ ستُستقبل، وستُستثمر فيما بعد على نحوٍ واسعٍ في العالم الإسلاميّ كونها شهادةً من "عالمٍ فرنسيٍّ" "٤" على "الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم."

*سأتبع طريقة عرض بوكاي لموضوعه "التّكاثر البشريّ"؛ كونها تتّسم بالوضوح والشّمول والعرض الجيّد، حيث يؤكّد بدايةً على الصّيغة غير المرتّبة لعرض موضوع التّكاثر البشريّ:" إنّ التّكاثر البشريّ وقد أُثير في عشرات الآيات القرآنيّة دون ترتيبٍ ظاهرٍ قد عرض من خلال تعاليم تركّز كلٌّ منها على نقطةٍ خاصّةٍ أو أكثر، ولابدّ لتكوين فكرةٍ عامّةٍ عنها من إعادة تصنيفها." "٥"

وثمّة ملاحظةٌ أخرى يعرضها بوكاي -قبل المضيّ في عرض النّقاط التّفصيليّة الّتي يثيرها- : "يركّز القرآن أوّلًا على التّصوّرات المتتابعة للجنين حين يكون في رحم الأمومة" سورة ٨٢ آية ٦-٨" يا أيّها الإنسان ما

غرّك بربك الكريم الّذي خلقك فسواك فعدلك في أيّ صورةٍ ما شاء ركّبك" سورة ٧١ آية ١٤ "وقد خلقكم أطوارا." "٦"

وهي ملاحظةٌ صحيحةٌ في هذا السياق، وهي ممّا يعرفه عموم البشر بحكم الخبرة الحياتيّة قديمًا وحديثًا، وليس فيها ما يمكن تأويله كإعجازٍ علميٍّ، والآيتان القرآنيّتان فحواهما تذكير الإنسان بخلقه، ومراحل هذا الخلق، وضرورة توحيد الخالق والاعتراف بفضله.

* يُورد بوكاي أربع أفكار أساسية حول موضوعة التّكاثر البشريّ في القرآن الكريم:"يوجّه النّص القرآنيّ الانتباه إلى نقاطٍ عدّةٍ تتعلّق بالتّكاثر والّتي تبدو، وكأنّها يمكن ترتيبها كما يلي:

١- اللقاح يتمّ بقليلٍ من السّائل.

٢- طبيعة لقاح السّائل.

٣- حضانة البويضة الملقّحة.

٤- تطوّر الجنين."٧"

وسأعتمد في تفسيري للآيات القرآنيّة الّتي يُوردها بوكاي على باقةٍ من التّفاسير القرآنيّة الأكثر انتشارًا "٨" إن لزم الأمر ذلك، وكذلك على معجم لسان العرب "٩": لتبيان دلالة الكلمات.

ثانيًا- اللقاح يتمّ بقليلٍ من السّائل المنويّ:

*الآية الأولى- "خُلق الإنسان من نطفة" سورة ١٦- آية ٤

- تعقيب بوكاي- على الآية القرآنيّة: "يشير إلى كمّيّةٍ ضئيلةٍ جدًّا من السّائل حيث يصبح المعنى الثّاني قطرةً من الماء، وهنا قطرة من المنيّ للتّعبير عنها في آيةٍ أخرى بكلمة منيّ."

- تعقيب كاتب السّطور: دلالة النّطفة هنا لا تتّفق مع ما هو مستقرّ حاليًا بكونها -النّطفة- حيوانًا منويًّا؛ حيث إنّ توصيف الحيوان المنويّ بالنّطفة هو توصيفٌ اصطلاحيٌّ من المستحيل البحث عنه أو تأصيله قبل اكتشاف الحيوانات المنويّة في السّائل المنويّ من قبل أنتوني فان ليفينهوك ١٦٧٧م؛ فالنّطفة اسمٌ مرادفٌ للمنيّ، وفي الحديث النّبويّ:

"قال لأَصحابه: هل من وَضوء؟ فجاء رجلٌ بنُطفةٍ في إداوةٍ؛ أَراد بها ههنا الماء القليل، وبه سمّي المنيُّ نُطفةً لقلّته." "١٠"، ومن المفيد هنا إثبات نصّ الآية القرآنيّة المستشهد بها كاملةً: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوخَصِيمٌ مُبِينٌ": للتّأكيد على المعنى الإجماليّ لتفسير الآية، وهو حسب تفسير الجلالين:"خَلَقَ الْإِنْسَان مِنْ نُطْفَة" مَنِيّ إلى أَنْ صَيَّرَهُ قَوِيًّا شَدِيدًا "فَإِذَا هُوخَصِيمٌ" شَدِيد إلخّصُومَة "مُبِينٌ" بَيِّنَهَا فِي نَفْي الْبَعْث قَائِلًا "مَنْ يُحْيِي الْعِظَام وَهِيَ رَمِيم" تفسير الجلالين.

*الآية الثّانية:"ألم يك نطفة من منيٍّ يُمنى" (سورة ٧- آية ٣٧)

التّعقيب:

هـذا يتماشـى مـع الدّلالـة السّـابقة الموصـوفة للنّطفـة كمـا استخدامها العرب، في عصر النّبوة، مع الإشارة إلى أنّه ثَمَّ خطأٌ في توثيق السّـورة القرآنيّـة كمـا وردت في كتـاب بوكـاي في نسـخته العربيّـة، فالصّحيح هـو السّـورة ٧٥ "سـورة القيامـة"، ولـيس السّـورة ٧ "سـورة الأعراف".

*الآيـة الثّالثـة: "ثـمّ جعلنـاه نطفـة في قـرارٍ مكـين" (سـورة ٢٣-آيـة ١٣)

_ تعقيـب بوكـاي عـلى القـرار المكـين: "يـراد مكـان نمـوّ الإنسـان في رحـم الأمومة"، ويضيف كملاحظةٍ ختاميّةٍ: "المهمّ بالخصوص هو أن نشير إلى أنّ قضيّة الكمّيّة الضئيلة من السّائل الضّروريّ للتّلقيح متّفقةٌ بدقّةٍ مع ما نعرفه عنها في هذا العصر." "١١"

- تعقيب كاتب السّطور: هذا مما يُفْتَرَض معرفته من قبل عموم البشر وأهل الخبرة في عصر النّبوّة: حيث التّأكيد على دلالة النّطفة، وهنا يُضاف دلالةٌ جديدةٌ: أنّها تصل، وتستقرّ إلى "قرار مكين"؛ فدلالة الآيات القرآنية السّابقة -وهي دلالاتٌ صحيحةٌ- ليس فيها ما يمكن تأويله على أنّه إعجازٌ علميٌّ، أو سابقة اكتشافٍ علميٍّ مقارنةً بالمعارف البشريّة المواكبة لها زمنيّا.

ثالثً: طبيعة لقاح السّائل:

يُورد الكتاب: يذكر القرآن هذا السّائل الّذي يضمن اللقاح بأوصافٍ يهمّ تفحّصها:

١- المنيّ كما سبق، وحقّقناه سور ٧- آية ٣٧

٢- السّائل الدّافع سورة ٧٦ آية ٦

٣- السّائل المهين "سورة ٣٢ آية ٨"، و"سورة ٧٧ آية ٢٠"

ويبدو أنّه يمكن تفسير وصف المهين، ليس من جهةٍ نوعيّة السّائل بالذّات، بل من جهة أنّه يصدر عن نهاية الجهاز البوليّ،مستعيرًا المجاز الّذي يخرج منه البول."

٤- أمشاج أومخلوط "إنّا خلقناه من نطفة أمشاج" (سورة الانسان آية٢)

فإذا رأى بعض الكتاب القدماء الّذين لم يكن لهم أدنى فكرةٍ عن فيزيولوجيا التلقيح، وبخاصّة

ظروفها البيولوجيّة من جهة المرأة، لقد كانوا يرون أنّ كلمة أمشاج الواردة في القرآن، هي مجرّد التقاء العنصرين، "ولكنّ شرَّاحا محدثين صحّحوا هذا الفهم، وكشفوا أنّ المنيّ مشحونٌ بعناصر مختلفةٍ، وإن

obeikandl.com

كانوا لم يفصلوا الحديث فيه، ولكن يبدو لي أنّ ملاحظتهم معقولةٌ جدّا." "١٢"

التّعقيب:

الأوصاف الثّلاثة الأولى للسّائل "يُمنى، الدّافع، المهين" لا تتعلّق بطبيعة وتركيب سائل اللقاح، وذكرها استطرادٌ فائضٌ، وتمييز بوكاي بين الكتّاب القدماء والشرّاح المحدثين، وهو تمييز يستند إلى أساسٍ تاريخيٍّ تكشّفت خلاله معطياتٌ علميّةٌ وتجريبيّةٌ حول عمليّة اللقاح والتّكاثر البشريّ لم يكن للقرآن والمفسّرين صلةٌ في إنتاجها.

هوتمييز -وينسحب هذا على مجمل المرويّات الإعجازيّة- يعطي أهمّيّةً أقلّ للنّصّ القرآنيّ مقارنةً بالتّفسير والتّأويل من جهة إنتاج الدّلالة وضبطها.

لنبحث عن دلالة "نطفة أمشاج"

أمشاج جاءت هنا صفةً للنّطفة، ومن غير المنطقيّ -كما ذكرنا- فهم النّطفة بمعناها المعاصر الحديث كـ "حيوانٍ منويٍّ"، بل تُؤخذ بالدّلالة المتعارف عليها المعاصرة للبعثة النّبويّة، أي: "منيّ: كمّيّةٌ قليلةٌ من السّائل المنويّ". هذا السّائل المنويّ يُوصف بكونه أمشاجًا، أي: مختلطًا، ولنذكِّر بما ورد في تفسير ابن كثير:"قال ابن عبّاس في قوله - {مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} يعني- ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا،

ثُمّ ينتقل بعد من طورٍ إلى طور، وحالٍ إلى حال، ولونٍ إلى لون. وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والرّبيع بن أنس -الأمشاج- هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة."

وذكر ابن حيّان في البحر المحيط: "وقال ابن عباس أيضًا والكلبيّ- هي ألوان النّطفة، وقِيل: أخلاط الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء، والنّطفة أُريد بها الجنس".

وبمراجعة ما سبق نجد فهمين للدّلالة:
الأوّل: النّطفة "السّائل المنويّ: ماء الرّجل" يختلط بـ "ماء المرأة " في الرّحم؛ فيصبح لدينا نطفةٌ أمشاج خلق منها الإنسان.

الثّاني: النّطفة "السّائل المنويّ:" هوعبارةٌ عن خليط "عروق" أي: أنّه يتكوّن من خليط عناصر، وهذا يتوافق مع فهمٍ كان سائدًا في العالم القديم ومشهورًا في نظريّة الطّبّ القديم ذي الأصول الإغريقيّة؛ حيث كانوا يسمّون سوائل البدن بالأخلاط فيقال" أخلاط الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء"، ويمكن تبيين الأساس المعرفيّ للأخلاط-آنذاك- بنظريّة الأخلاط الأربعة"١٣".

ولكن أخلاط من ماذا؟ لا نجد إجابةً في متن الآية القرآنيّة، وهي لاتقف عند ذلك؛ لكون الدّلالة العامّة للآية لا تقصد العلم بالخاصّة، بل

تذكير الإنسان بـ" معجزة خلقه" وأن يكون في عداد المهتدين، ويتبيّن هذا بإعادة العبارة "نطفة أمشاج" إلى سياق الآية الثّانية من صورة الإنسان، وربطها بالآية الّتي قبلها وبعدها: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا "١" إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا "٢" إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "٣".

نتابع مع بوكاي:

"السّائل المنويّ مؤلَّفٌ من رشّاحات تنطُف من الغدد التّالية:" الغدد المنويّة للذّكور، المبايض البروستات، الغدد المساعدة للمسالك البوليّة." هذه هي أصول هذه الأمشاج الّتي يبدو القرآن متكلّمًا عنها كثيرًا.

على أنّه بالإضافة إلى ما سبق، إذا تكلّم القرآن عن سائلٍ ملقّحٍ مكوّنٍ من عناصر مختلفةٍ؛ فهو ينبّهنا إلى أنّ نسل الإنسان يتحقّق من بعض الأشياء الّتي يمكن أن تكون مستخرجةً من هذا السّائل. وهو معنى الآية "٨" من السّورة "٣٢"، " ثُمّ جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين". والكلمة العربية "سلالة " مترجمة هنا suintessenc الّتي تعني "مستخرجًا من آخر "بهذه الطّريقة أو تلك فإنّها تبقى تعني جزءًا من كلّ."" ١٤""

فالّذي أبدى نشاطه إذًا هو جزءٌ دقيقٌ جدا انفصل من سائل التّكوين الشّديد التّعقيد؛ فكيف لا نُدهش بالتّالي من الإتقان القائم بين نصّ القرآن والمعرفة العلميّة الّتي توصلنا إليها في هذه الظواهر؟! "١٥"

التّعقيب:

بدايةً سأقدّم السّياق القرآنيّ كاملًا: "الّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ "٧" ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ "٨" ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ "٩"" (السّجدة)

ففحوى الخطاب هو التّذكير بعظمة خلق الله، وليس شيئًا آخر، وللوقوف عند دلالات كلمة "سلالة"، ذكر ابن الجوزيّ في زاد المسير:

" قال الزّجاج -والسُّلالة- فُعّالة، وهي القليل مما يُنْسَل، وكلّ مبنيٍّ على «فُعّالة» يُراد به القليل، من ذلك: الفُضالة، والنُّخَالة، والقُلامة."

فرغم أنّ الدّلالة الّتي يثبتها بوكاي للسّلالة صحيحةٌ، لكنّها جاءت في صيغة إشارةٍ ولمحةٍ، لا يمكن الاستناد عليها؛ لبناءٍ أو تأكيدٍ أو نفي نظريّةٍ علميّةٍ، وكانت دلالة من دلالاتٍ أخرى ممكنةٍ نجدها على سبيل المثال:

أوّلًا: السّلالة بمعنى الخلاصة؛ فقد أورد الألوسيّ في تفسير: "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ"٨" {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ} أي: ذرّيته سُمّيت

بذلك؛ لأنّها تنسلّ، وتنفصل منه {مِن سلالة} أي: خلاصةٌ، وأصلها ما يسلّ، ويخلص بالتّصفية {مّن مَّاء مَّهِينٍ} ممتهن لا يعتني به، وهو المنيّ"

ثانيًا: السّلالة بمعنى الذّرية؛ حيث أورد الزّمخشري في تفسيره: "سميت الذّرية نسلًا؛ لأنّها تنسلّ منه، أي: تنفصل منه، وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد: سليل ونجل".

ثالثًا: السّلالة بمعنى النّطفة؛ حيث أورد النّسفيّ في تفسيره: "والعرب تسمّي النّطف سلالةً أي: ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ يعني من نطفةٍ مسلولةٍ من طينٍ أي: من مخلوقٍ من طينٍ، وهو آدم -عليه السّلام- {نُّطْفَةٍ} ماءٌ قليلٌ {فِي قَرَارٍ} مستقرّ يعني: الرّحم {مَّكِينٍ} حصين".

رابعًا: السّلالة بمعنى الطّين؛ حيث أورد الشّوكانيّ في فتح القدير: "وقيل: السّلالة: الطّين، إذا عصرته انسلّ من بين أصابعك؛ فالّذي يخرج هو السّلالة"، "والسّلالة فعّالة من السلّ، وهو استخراج الشّيء من الشّيء، يُقال: سللت الشّعرة من العجين، والسّيف من الغِمد؛ فانسلّ، فالنّطفة سلالةٌ، والولد سليلٌ، وسلالةٌ أيضًا، ومنه قول الشّاعر:

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا ** سلالة فرج كان غير حصين.

وممّا يدعّم هذا أنّ هذه المعاني كانت متداولةً قرب عصر النّبوّة، ومن هذا البيت المنسوب لأميّة بن أبي الصّلت:

خلق البريّة من سلالةٍ منتن ** وإلى السّلالة كلّها ستعودُ

والخلاصة:

أنّ ثَمَّة دلالاتٍ لغويّةٍ متعدّدةٍ متداولةٍ آنذاك، واجتهاداتٍ في تفسير "السّلالة"، وهي دلالاتٌ توافق الاستمراريّة الزّمنيّة لفعل التّكاثر.

ولنتابع مراحل الخلق -كما وردت في كتاب بوكاي-:

رابعًا: حضانة البويضة الملقّحة:

يُورد الكتاب: "يتحقّق استقرار البويضة في الرّحم بنموّ الزّغابات أي: الامتدادات الحقيقيّة للبويضة الّتي تتشعّب كالجذور في الأرض؛ لتمتصّ من سماكة العضو ماهو ضروريّ لنماء البويضة. هذه التّخلّقات تعلّق البويضة في الرّحم تعلّقًا قويًّا، وهذه كلّها لم نعرفها إلّا في الأزمان الحديثة. لقد ذكر هذا التّعلّق في القرآن خمس مرّات، أوّلًا: في الآيتين الأوليتين من السّورة ٩٦:" اقرأ باسم ربّك الّذي خلق، خلق الإنسان من علق" وترجمة العلق باللغة الفرنسيّة: quelque chose qui saccrochr أي: شيءٌ ما يتعلّق، وهو معناه الأصليّ، معنى مشتقّ من الفعل، أمّا صورة "دمٍ متجمّدٍ أو كتلة دمٍ" المكرّرة في التّرجمات، فهي غير صحيحةٍ، ويجب التنبّه إلى ذلك؛ إذ إنّ الإنسان لم يمرّ مطلقًا في مرحلة "الدّم

المتجمّد أو كتلة الدّم"، كما أنّه كذلك بالنّسبة للتّرجمة الأخرى المعطاة، وهي "الالتصاق" الّذي هو أيضًا تعبيرٌ غير صحيح. والمعنى الأوّل هو كما ذكرنا: "شيءٌ ما يتعلق" يلتقي تمامًا مع الحقيقة المُثبتة في هذه الأيّام.""١٦"

التّعقيب:

الكلمة الواحدة تحتمل دلالاتٍ متعدِّدةٍ، وهذا يتعلّق بسياقات استخدامها، فالرحم مثلًا تعني القرابة، وتعني رحم المرأة، وكلاهما دلالتان صحيحتان فلا يحقّ لنا نعت إحداهما بـ "غير صحيحة" دون قرائن من داخل السّياق، ولكي نجزم بأنّ هذا المعنى صحيحٌ، وهذا المعنى غير صحيحٍ؛ فالمرجع في ذلك سياقات النّص، وكذلك الدّلالة المتعارف -التوافقيّة- عليها في اللغة.

لنستقص دلالات كلمة عَلَقَ في قاموس "لسان العرب":

- "علق" عَلِقَ بالشّيءِ عَلَقًا وعَلِقَهُ نَشِب فيه.
- وعَلِقَت المرأَة أَي: حَبِلَتْ:
- العَلَقُ الدّم ما كان، وقيل: هو الدّم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أَن ييبس، وقيل هو ماشتدت حمرته والقطعة منه عَلَقة، وفي حديث سَرِيَّةِ بني سُلَيْمٍ فإذا الطير ترميهم بالعَلَقِ أَي: بقطع الدّم.

obeikandi.com

- كلّ دمٍ غليظٍ عَلَقٌ، والعَلَقُ دودٌ أَسودُ في الماء معروفٌ، الواحدة عَلَقةٌ، وعَلِق الدابةُ عَلَقًا تعلَّقَتْ به العَلَقَة. وقال الجوهري عَلِقَت الدابةُ إِذا شربت الماءَ؛ فعَلِقَت بها العَلَقة.
- والعَلَقَةُ دودةٌ في الماء تمصُّ الدّم والجمع عَلَق" "١٧"

فالمعنى القريب المتداول هو أنّ العلق قطعةٌ من الدّم الجامد الغليظ. "وهو وصفٌ ظاهريٌّ". والجنين في أطوار تخلقه الأولى يكون وصفه الظّاهريّ شبيه بالعلق، وهذا معروفٌ من الخبرة الحياتيّة لمعظم الشّعوب، وبما هو مواكبٌ زمنيًّا لعصر النّبوّة، ويمكن الاستناد إلى حوادث وملاحظة حالات الإسقاط المتكرّرة للجنين غير المكتمل.

ومن المعاني الّتي يذكرها لسان العرب: أنّ العرب تقول: علقت المرأة بمعنى حبِلت، وهو استخدامٌ مجازيٌّ لكلمة "علق" مما يدلّ على أنّ هذا الاستخدام كان واردًا وذا صلةٍ بالحَبَل.

ويذكر ابن حيّان في تفسيره "البحر المحيط": أنّ خلق الإنسان من عَلَق كان مما يقربه العرب في عصر النّبوّة- "وإنّما ذكر من خلق من علق؛ لأنّهم مُقِرّون به- يقصد مشركي قريش-، ولم يذكر أصلهم آدم؛ لأنّه ليس متقرّرًا عند الكفّار، فيسبق الفرع، وترك أصل الخلقة تقريبًا لأفهماهم".

فدلالة كلمة علق واضحةٌ في العربيّة، وهي متداولةٌ ومعروفةٌ، وتتوافق مع التّصوّر السّائد آنذاك عن خلق الإنسان، وخلق الإنسان من علق يُفهم منه بما أوضحه المفسّرون، وهو وصفٌ مورفولوجيٌّ صحيحٌ لإحدى مراحل تخلّق الإنسان، ودلالته كاشتقاقٍ لغويٍّ هي بالفعل من علق: تعلّق...إلخّ.

ولكن استثناء المعنى المتداول والمعروف للعلق من التّفسير وحصره بـ:"شيء ما يتعلّق" هو تعسّفٌ من قبل موريس بوكاي.

نحويًّا: الشّيء الّذي يَتَعَلَّق هو"مُتَعَلِّقٌ"، وكلمة "علق" لم يجد المفسّرون والمعاصرون للنّبوّة زمنيًّا صعوبةً في فهمها، والإشكاليّة هي محاولة بوكاي تأويل الآيات القرآنيّة بناءً على معنى محدَّدٍ سابق الصّنع، وهو المعنى الّذي استقرّت عليه النّظريّة العلميّة الحديثة في علم الأجنّة، وربط عمليّة تعشيش البيضة الملقّحة في جدار الرّحم بتأويلٍ لغويّ.

فطالما أنّ النّطفة تستقرّ في الرّحم، وتتخلّق؛ فهي متعلِّقةٌ به، وإلّا سقطت ولم يُتح فرصةٌ لنموّ الجنين وتعلّقه بالرّحم، وعندما يفقد الجنين تعلّقه سيحدث الإسقاط والإجهاض، وهذا ممّا يعرفه عموم النّاس بحكم الخبرة الحياتيّة قديمًا وحديثًا، ومن التعسّف تأويله كسبق أو إعجاز للعلم.

obeikandl.com

وللمفارقة سأثبت وجهة نظرٍ أخرى -من خارج كتاب بوكاي- تضيف توافقًا مع وصف الآية السّابقة لخلق الإنسان بمرحلة العلق "المشتقّ من الدّم الجامد، وشكل دودة العلق" بأنّه إعجازٌ علميٌّ للقرآن الكريم.

أمّا إذا أخذنا المعنى الحرفيّ للعلقة "دودة عالقة"، فإنّنا نجد أنّ الجنين يفقد شكله المستدير، ويستطيل؛ حتّى يأخذ شكل الدّودة، ثُمَّ يبدأ في التّغذي من غذاء الأمّ، مثلما تفعل الدّودة العالقة، إذ تتغذّى من دماء الكائنات الأخرى، ويحاط الجنين بمائعٍ مخاطيٍّ تمامًا، مثلما تُحاط الدّودة بالماء، ويبيّن اللفظ القرآنيّ "علقة" هذا المعنى بوضوحٍ طبقًا لمظهر وملامح الجنين في هذه المرحلة، وطبقًا لمعنى "دم جامد أو غليظ" للفظّ العلقة، نجد أنّ المظهر الخّارجيّ للجنين وأكياسه يتشابه مع الدّم المتخثّر الجامد الغليظ؛ لأنّ القلب الأوّلي وكيس المشيمة، ومجموعة الأوعية الدّمويّة القلبيّة تظهر في هذه المرحلة ." "١٨" وذلك بخلاف وجهة نظر بوكاي الّتي سبق أن عرضها والّتي يوجزها في: أمّا صورة "دمٌ متجمّدٌ أو كتلة دم" المكرّرة في التّرجمات، فهي غير صحيحةٍ، ويجب التّنبّه إلى ذلك، إذ إنّ الإنسان لم يمرّ مطلقًا في مرحلة "الدّم المتجمد أو كتلة الدّم" كما أنّه كذلك بالنّسبة للتّرجمة الأخرى المعطاة وهي "الالتصاق" الّذي هو أيضًا تعبيرٌ غير صحيح ." "١٩" لنتابع مرحل الخلق كما وردت في الكتاب:

o n e k a n d i . c o m

خامسًا- تطوّر الجنين داخل الرّحم:

يُورد الكتاب: "إنّ وصف مراحل تطور الجنين -كما هو في القرآن- يتجاوب مع كلّ ما نعرفه اليوم عن ذلك، وهو لايحتوي أيّة عبارةٍ ينتقدها العلم الحديث، ثُمّ إنّ الجنين بعد "شيء ما يتعلّق"، وهو التّعبير الّذي رأينا إلى أيّ حدٍّ هو صحيح، يمرّ -كما يقول القرآن- بمرحلة المضغة: "مثل اللحم الممضوغ"، ثُمّ يبدو الهيكل العظميّ مكسوًّا باللحم "موصوفًا بكلمةٍ مختلفةٍ عن الأولى، ونعني بها: اللحم الطريّ" سورة ٢٣ آية ١٤ "فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحما" "٢٠" " وهذا التّفريق بين المضغة واللحم كتعبيرين يستحقّ أن يُشار إليه. والجنين هو في البداية كتلةٌ لها بالنّسبة للعين المجرّدة في بعض مراحل نموّها، هيئة المضغة، والهيكل العظميّ يتطوّر في حضن هذه الكتلة فيما نسمّيه: "المشيمة"، وعندما تتكوّن العظام تنكسي بالكتل العضليّة الّتي ينطبق عليها كلمة اللحم ." "٢١"

التّعقيب:

*أوّلًا- القول: إنّ "الهيكل العظميّ يتطوّر في حضن هذه الكتلة فيما نسمّيه" المشيمة" خطأٌ علميٌّ، ولا أدري هل هو خطأٌ في النّسخة الفرنسيّة الأصليّة أم هو خطأ ترجمة؟!

فالهيكل العظميّ والعضلات تتطوّر ابتداءً من "الوريقة المتوسّطة" والقطع البدنيّة كجزءٍ من كتلة الجنين، وليس كتلة المشيمة؛ فللمشيمة وظائف أخرى حياتيّةٌ متمِّمة للجنين.

والمشيمة تتطوّر في مرحلة التّعشيش ابتداءً من السّاقطة القاعديّة bassilai caduque بقسمها الوالدي، وتطوّرها منفصل عن تكون الهيكل العظميّ. "٢٢"

* ثانيًا- الفاء تفيد التّعقيب وتدلّ على أنّ هذا وقع عقب هذا، وفي مثالنا تكون الدّلالة: أنّ خلق العظام قد تمّ أوّلًا، وأعقبهُ كسوة العظام لحمًا، ويعلّق البغويّ في تفسيره:"{فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} أي: ألبسنا"، وبذلك يكون المعنى الحرفيّ للآية:

المضغة ←—— عظام ←—— عظام مكسوّة باللحم.

"ففي نهاية الأسبوع الثّاني وبداية الأسبوع الثّالث تتمايز المضغة الجنينيّة إلى ثلاث وريقات:
١- الوريقة الخارجيّة ectoderme ويتطوّر منها فيما بعد الجملة العصبيّة المركزيّة والمحيطيّة، والبشرة الجلديّة وملحقاتها من أظافر وشعرٍ وغددٍ ثدييّة ...إلخّ.

٢- الوريقة الوسطى mesoderme ويتطوّر منها فيما بعد الجهاز الهيكليّ والغضاريف والعظام والنّسج الضّامّة، والعضلات الملساء والمخطّطة والكلّيّة والمجاري البوليّة التّناسليّة والطّحال...إلخّ.

٣- الوريقة الدّاخليّة endoderme ويتطوّر منها ظهاريّة الأنبوب الهضميّ والتّنفسيّ والظّهاريّة المبطّنة للمثانة والغدّة الدّرقيّة والكبد والبنكرياس...إلخّ "٢٣"

فعمليّة تطوّر الجنين هذه معقّدة، وتمرّ بمراحل وسيطيّة متعدّدة، ويكتمل تشكل أعضاء الجنين في الأسبوع التّاسع، ولو بشكلٍ غير وظيفيٍّ، وليست بصيغة "عظام ثُمّ لحم" بالصّيغة الحرفيّة للدّلالة. فتشكّل النّسيج العظميّ والعضلات يتمّ بشكلٍ متزامنٍ، وليس أوّلًا .. ثانيًا.

"فخلايا النّسيج المتوسّط الجنينيّ لها المقدرة على إعطاء خلايا أصليّة ليفيّة أو أصلية عضليّة أوأصليّة غضروفيّة أوعظميّة." "٢٤" و "التّعظّم يبدأ في العظام الطّويلة في حوالي نهاية المرحلة الجنينيّة؛ حيث إنّ نقاط التّعظّم الأوليّة تظهر في حوالي الأسبوع ١٢، أمّا نقاط التّعظّم الثّانويّة، فتظهر بعد الولادة. ""٢٥"

فالعضلات المخطّطة الهيكليّة تشتقّ من الخّلايا العضليّة الأصليّة المتوسّطة المنشأ، وفي نهاية الشّهر الثّالث تظهر التّخطيطات العرضيّة

المميّزة للعضلات المخطّطة، وفي نهاية الأسبوع الخامس تنقسم عضليّة جدار الجسم إلى قسمٍ علويٍّ وقسمٍ سفليّ.

سادسًا- دراسة مقارنة بين عدّة نصوصٍ قرآنيّة:
تقتضي المنهجيّة العلميّة التّطرّق إلى كلّ النّصوص القرآنيّة الّتي تتناول موضوعة تطوّر خلق الإنسان، وهي التّالية:

أ- نصّ سورة المؤمنون:
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ "١٢" ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ "١٣" ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالقينَ "١٤" ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ "١٥" ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ "١٦"

ب- نصّ سورة الحجّ:
يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ "٥" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوالْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ"٦" وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"٧"

باستقراء النّصين:

النّص الأوّل:

طين ←نطفة ← علقة ← مضغة← عظام ← عظام مكسوة باللحم ← خلقًا آخر.

النّصّ الثّاني-:

تراب ←نطفة← علقة← مضغة مخلّقة وغير مخلّقة ← طفل.

في النّص الأوّل كانت أداة العطف: ثُمّ- ثُمّ- الفاء -الفاء-الفاء- ثُمّ

في النّصّ الثّاني كانت أداة العطف: ثُمّ- ثُمّ – ثُمّ – ثُمّ.

ودلالة "ثُمّ" هي: تفيد التّرتيب والتّراخي، يراخي به ما بعده عمّا قبله.

أمّا دلالة الفاء: الفاء تفيد التّعقيب، تدلّ على أنّ هذا وقعٌ عقب هذا، لاحظ في النّصّ الأوّل استخدام حرف العطف الفاء على سبيل المثال: "فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً".

obeikandi.com

أمّا في النّصّ الثّاني، فقد تمّ استخدام حرف العطف ثُمّ "مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ". فالانتقال من مرحلة العلقة إلى المضغة قد تمّ باستخدام حرفي جرٍّ مختلفين في دلالتهما الدّقيقة.

مما يجعلنا نذهب إلى أنّ النّصّين المذكورين يُؤخذان على إجمالهما في التّذكير بمعجزة خلق الله للإنسان من دون تفصيلٍ وتحميلهما ما لا يحتمل من تفاصيل.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه وبمراجعة النّصين نجد:
ينتهي النّصّ الأوّل-: "آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالقينَ "١٤" ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ "١٥" ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ "١٦"" المقصود هو: تبارك الله أحسن الخالقين، وكذلك قرينة على وجود البعث والحساب.

وينتهي النصّ الثّاني: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُو الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "٦" وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ "٧" والمقصود- تبارك الله في قدرته، وكذلك قرينةٌ على وجود البعث والحساب.

جـ– نصّ سورة غافر:
"قلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ "٦٦" هُوالّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" سورة غافر

حيث يتمّ هنا تجاوز الإشارة إلى مرحلة المضغة على سبيل المثال؛ فاختلاف صيغ الكلام عن الخلق ومراحله بين النّصوص الثّلاثة يتنافى مع كوننا أمام "نصٍّ علميٍّ"، بل نصٍّ مجازيٍّ يهتمّ بمجمل قضيّة الخلق من ناحيةٍ عقائديّة.

د- نصّ سورة القيامة:

"أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى. ألم يك نطفةً من منيٍّ يُمنى ثُمّ كان علقة فخلق فسوّى" "القيامة ٣٦-٣٧"

نفس الملاحظة على النّصّ السّابق في سورة غافر.

*استقراء النّصوص القرآنيّة الأربعة، وأخذها على الحرفيّة- والخطاب العلميّ حرفيّ بالضّرورة- يكون خلق الإنسان من نطفة، وهذا علميًّا غير صحيحٍ كون خلقه يتمّ من اندماج نطفةٍ مع بويضة، ثُمّ تكوين بويضةٍ ملقّحة.

وهذه قرينةٌ على تهافت دعوى الإعجازيّين، وإنزال للقرآن الكريم في غير منزله.

وسأعرض هنا تعليقًا -ذو صلةٍ- لكامل نجّار يتناول فيه النّصوص القرآنيّة السّابقة مع التّحفّظ على اللغة النّافرة الّتي يستخدمها الكاتب وآراؤه الاعتقاديّة الخاصّة. ولكنّنا هنا في سياق بحثٍ يحاول ما أمكن الالتزام بالموضوعيّة والمنهج البحثيّ "يصرّ القرآن على الخطأ. فيقول "أيحسب الإنسان أن يُترك سدى. ألم يك نطفةً من منيٍّ يُمنى ثُمّ كان علقةً فخلق فسوّى" "القيامة ٣٦-٣٧" مرّةً أخرى يتجاهل القرآن دور البويضة الّتي تكوّن نصف الإنسان، ويكتفي بالماء الدّافق الّذي يراه النّاس بالعين المجرّدة؟" ثُمّ يقول "هو الّذي خلقكم من تراب ثُمّ من نطفةٍ ثُمّ من علقةٍ ثُمّ يخرجكم طفلًا ثُمّ لتبلغوا أشدّكم ثُمّ لتكونوا شيوخًا " "غافر ٦٧". فبعد خلق آدم من تراب أصبح خلق الإنسان من نطفةٍ أي من المنيّ الّذي يتغيّر إلى علقة. وطبعًا هذا الطّرح لا يمكن أن يكون قد أتى من إلهٍ عالمٍ؛ لأنّ المنيّ وحده لا يُخلق مضغةً. ولكن لأنّ محمّد كان يرى منيّ الرّجل فقط. ولم يكن يعرف أنّ المرأة تفرز البويضة الّتي تحمل نصف الكرّوموسومات الّتي تكوّن خلايا الجنين كما يحمل الحيوان المنويّ النّصف الآخر. أعتقد أنّ العلقة ناتجةٌ من المنيّ فقط. ويستمرّ القرآن في نفس الخطأ. فيقول: "والله الّذي خلقكم من تراب ثُمّ من نطفةٍ ثُمّ جعلكم أزواجًا" "فاطر ١١". ثُمّ يدخل القرآن في تفاصيل أدقّ. فيقول "لقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طينٍ ثُمّ جعلناه في قرارٍ مكين ثُمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة

عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثُمّ أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" "المؤمنون١٢- ١٤". وقد شرحت بإسهابٍ خطأ هذه الآيات في كتابي "قراءةٌ منهجيّةٌ للإسلام"، وبيّنت كيف أنّ العظام لا تُخلق أوّلًا ثُمّ يكسوها اللحم، بل العكس تمامًا يحدث، فيتكوّن اللحم ثُم تنبت العظام في داخله."""٢٦"

التّعقيب:

يمكن الأخذ بنقد كامل نجّار عند النّظر إلى القرآن الكريم ككتاب علومٍ وبيولوجيا، ولكن القرآن الكريم لم يقدِّم نفسه أبدًا بهذه الصّيغة، وهو لايستوفي شروط الكتابة العلميّة، وذلك ليس عيبًا وتقصيرًا، ولكن عند النّظر للقرآن الكريم ككتابٍ عقائديٍّ يُعنَى بالتّوحيد والهداية والعبرة عندها نكتفي بكون هذه الآيات مجرّد تذكيرٍ بعظمة الخالق وإمكانيّة البعث وقيامة الإنسان.

سابعًا- عودة إلى كتاب موريس بوكاي:

يُورد الكتاب:

_"ونعلم أنّه خلال هذا التّطوّر الخاصّ بالجنين تظهر بعض الأجزاء غير المنسجمة تمامًا مع الّذي سيكوّن كيان الإنسان، بينما تبقى أجزاءً أخرى منسجمةً معه.

- أليست كلمةً "تخلّق". وهي الّتي تعني"تكون بانسجام" قد استعملت في الآية "٥" من السّورة "٢٢" للتّعبير عن هذه الظّاهرة-" فإنّا خلقناكم من تراب ثُمّ من نطفةٍ ثُمّ من علقةٍ ثُمّ من مضغةٍ مخلّقةٍ وغير مخلّقة لنبيّن لكم" "٢٧"

التّعقيب:

*المعنى الّذي يشير إليه بوكاي لكلمة "تَخَلَّق": يتّفق مع الملاحظة العمليّة وتطوّر اكتمالِ الخلقة الآدميّة. وهذا يتمّ بعمر ثماني أسابيع حمليّة تقريبًا. حيث يتمّ الانتقال من مرحلة الحميل إلى مرحلة الجنين. ويتوافق هذا مع طول للجنين بحدود ٢ سم ووزن بحدود ٢.٥ غرام.

*بمراجعة التّفاسير نرى أنّ ابن الجوزيّ أورد في تفسيره" زاد المسير" خمسة أقوال:

"قوله تعالى: { مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ } فيه خمسة أقوال:

أحدها -أنّ المخلَّقة- ما خُلق سويًّا، وغير المخلَّقة- ما ألقته الأرحام من النّطف، وهو دمٌ قبل أن يكون خَلْقًا. قاله ابن مسعود.

والثّاني -أنّ المخلَّقة- ما أُكمل خَلْقه بنفخ الرّوح فيه، وهو الّذي يُولَد حيًّا لتمامٍ، وغير المخلَّقة- ما سقط غير حيٍّ لم يكمل خَلْقُه بنفح الرّوح فيه. هذا معنى قول ابن عباس.

obeikandi.com

والثّالث -أنّ المخلَّقة: المصوَّرة، وغير المخلَّقة- غير مصوَّرة، قاله الحسن.

والرّابع- أنّ المخلَّقة وغير المخلَّقة: السّقط، تارةً يسقط نطفة وعلقة، وتارةً قد صُوِّر بعضه، وتارةً قد صُوِّر كلُّه، قاله السّدي.

والخامس- أنّ المخلَّقة التّامة، وغير المخلَّقة: السّقط، قاله الفراء، وابن قتيبة ."

*نتابع مع بوكاي:

"والقرآن يثير أيضًا ظهور الأحاسيس والأوعية من القلب والرّئتين السّورة ٣٢ الآية ٩"- وجعل لكم السّمع والإبصار والأفئدة." "٢٨"

التّعقيب:

سياق الآية الّتي أوردها بوكاي كاملةٌ هو:"الّذي أحسن كلّ شيء خَلَقَه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثُمّ جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ. ثُمّ سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون" "السّجدة ٧-٩".

فالمُخاطب هو الإنسان، والإنسان يسمع، ويبصر وله فؤادٌ "قلب"، وكلّ هذا معروفٌ بحكم البداهة والخبرة الاعتياديّة، ومقام المَقال تذكير الإنسان بنعم الله عليه من سمع وإبصار وفؤاد، وأنّ الله أحسن الخالقين.

obeikandi.com

ولكن لنقف عند تعبيرٍ رُوحه -كيف يمكن إثباته علميًّا- خارج إطار العلم بالمعنى الخاصّ، وكيف نعرف أنّها رُوح الله؟!

*يُورد بوكاي:

"يُشير إلى التّكوين الجنسيّ في السّورة ٥٣ آية ٤٥-٤٦، وأنّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى من نطفةٍ إذ تمنّى والتّكوين الجنسيّ مذكورٌ أيضًا في السّورة ٣٥ آية ١١ والسّورة ٧٥ آية ٣٩، وكلّ هذه النّصوص القرآنيّة ينبغي أن تقارن كما قلنا مع المعلومات المثبتة في هذا العصر واتفّاقها معها واضحٌ." "٢٩"

وسأقوم بإثبات الآيات القرآنيّة الّتي أشار بوكاي إليها رقمًا:

الآية الأولى: "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" فاطر الآية ١١

الآية الثّانية: "ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى" القيامة ٣٨- ٣٩

التّعقيب:

الإنسان كائنٌ منفصل الجنس، والجنين الّذي يتشكّل ابتداءً من النّطفة إمّا ذكر وإمّا أنثى.

هل في هذا ما يستدعي الوقوف عنده، وقسره في خانة الاتّفاق -الإعجاز- العلميّ للقرآن الكريم في ضوء المعارف العلميّة؟! فمقام المقال: تأمّل أيّها الإنسان كيف خلقك الله ذكرًا زوجًا، أو أنثى متزوِّجةً ابتداءً من أصل "مَنِيٍّ" واحد.

* سأقوم باستنتاجٍ فاسدٍ مجاريًّا دعوات الإعجازيّين وملتقيا "الإشارات العلميّة الدّقيقة" في القرآن الكريم، ودون مجاملةٍ اعتمادًا على الدّلالة اللغويّة المباشرة.

الآية التّالية: "وأنّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى من نطفةٍ إذ تمنّى"

الدّلالة اللغويّة المباشرة: الآية تخبرنا أنّ خلق الزّوج الذّكر والزّوجة الأنثى تمّ ابتداءً من نطفةٍ إذ تمنى، والنّطفة- كما أسلفنا لغةً- هي القليل من ماء الرّجل.

- المعنى العلميّ: الخلق يتمّ ابتداءً من نطفةٍ وبويضةٍ أنثويّةٍ؛ لتشكيل بويضةٍ ملقحة تستقر في الرّحم ←—— إنسانٌ ذكرٌ أو إنسانٌ أنثى.

الاستنتاج: هناك خطأٌ علميٌّ يتمثَّل في جعل خلق الإنسان من نطفةٍ، وليس من "نطفة مع بويضة: لتشكيل البويضة الملقّحة"؛ لتصبح الصّياغة بدلًا من "من نطفةٍ إذ تُمنى" "من نطفة بعد تلقيحها بالبويضة، أو أيّ تعبيرٍ يشير لاشتراك الأنثى الفاعل في عمليّة الخلق."

obeikandi.com

مع ملاحظة أنّه ثمّة وجهة نظرٍ متداولة في أوساط الإعجازيّين تميّز بين النّطفة و"النّطفة الأمشاج": حيث ترى أنّ البويضة الملقّحة = النّطفة الأمشاج، وسأقوم بمناقشة هذا الرّأي بشكلٍ مستقلٍّ في نهاية الفصل؛ لكونه خارج أطروحات كتاب بوكاي الّذي نحن بصدد تناوله الآن.

التّعقيب:

تمّ استخدام تعبير "نطفة إذ تُمْـنَى" متوافقًا مع المعرفة والخبرة الحياتيّة الاعتياديّة بما يقرّه عموم النّاس في زمن النبوة، ويبقى هذا صالحًا في هذا الزّمن كون مقام المقال هو تذكير الإنسان بمعجزة خلقة ابتداءً من نطفة، وعظمة قدرة الله وفضله.

والاستنتاج السّابق يثبت لنا كم جنى الإعجازيّون ودعاة التّفسير العلميّ على القرآن الكريم والتّعسف الّذي يتعاملون به مع القرآن وتحميله مالا يحتمل، فلا يكفي أن ننتقي كلمةً أو جملةً لتقول أنّه ثمَّ إعجازٌ بناءً على تفسيرٍ لغوي يُؤخذ بعين الاعتبار وبشكلٍ سابق حقيقةٍ علميّةٍ متداولة حاليًا، بل يجب أخد كلّ الكلمات والجمل وسياقاتها، وكلّ المعاني اللغويّة المحتملة والاحتكام للمنطق الدّاخلي للنّصّ القرآنيّ.

ثامنًا- هل النّطفة الأمشاج هي البويضة الملقّحة؟

أوّلًا-السّياق القرآنيّ:

وردت كلمة نطفة وحدها؛ لتوصيف أصل خلق الإنسان عشر مرّات في القــرآن الكــريم: "خَلَــقَ الْإِنْسَــانَ مِــنْ نُطْفَــةٍ فَــإِذَا هُوخَصِــيمٌ مُبِينٌ""٤"النّحل

"قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُويُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا" "٣٧" الكهف

"يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" "٥" الحج

_ "ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ" "١٣" (المؤمنون)

- مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ "١٩" (عبس)

_ "أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى" "٣٧" (القيامة)

_ "مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ""٤٦" (النجم)

_ "هُو الّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" "٦٧" (غافر)

_ "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوخَصِيمٌ مُبِينٌ" "٧٧" (يس)

- "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" "١١")فاطر)

ووَرَدَ تعبير"نطفة أمشاج "مرّةً واحدةً فقط في سورة الإنسان: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا "٢" (سورة الإنسان)

ويعلّق ابن كثير في تفسيره على هذه الآية:
{إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} أي: أخلاط. والمشج والمشيج: الشيء الخّليط "٥". بعضه في بعض.

قال ابن عباس في قوله: {مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ } يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا".

ثانيًا- وجهة نظر الإعجازيّين:

وجهُ الإعجاز: القرآن الكريم ذكر أنّ الإنسان مخلوقٌ من "نطفة أمشاج" أي: نطفة مختلطة، وهي نفسها "البيضة الملقّحة" بالمصطلح العلميّ، سأعرض لنصّين كعيّنةٍ لوجهة نظر الإعجازيّين.

النصّ الأوّل:

"الإنسانيّة لم تعرف أنّ الجنين يتكوّن من اختلاط نطفة الذّكر وبويضة الأنثى إلّا في القرن الثّامن عشر، ولم يتأكّد لها ذلك إلّا في بداية القرن العشرين.

بينما نجد القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة قد أكّدا بصورةٍ علميّةٍ دقيقةٍ أنّ الإنسان إنّما خُلق من نطفةٍ مختلطةٍ سمّاها "النّطفة الأمشاج" فقال -تعالى- في سورة الإنسان: "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا" "الإنسان-٢". وقد أجمع أهل التّفسير على أنّ الأمشاج هي الأخلاط، وهو اختلاط ماء الرّجل بماء المرأة. والحديث الشّريف يؤكّد هذا عندما أخرج الإمام أحمد في مسنده أنّ يهوديًا مرّ بالنّبيّ -صلّى الله عليه، وسلّم-، وهو يحدّث أصحابه، فقالت له قريش: يا يهوديّ، إنّ هذا يزعم أنّه نبيٌّ؛ فقال: لأسألنّه عن شيءٍ لا يعلمه إلّا نبيٌّ، فقال: يا محمّد، مِمَّ يُخلق الإنسان؟ فقال رسول الله -صلّى الله عليه،

وسلّم-: "يا يهوديّ، من كلٍّ يخلق: من نطفة الرّجل، ومن نطفة المرأة؛ فقال اليهوديّ: هكذا كان يقول مَن قبلك." "أي: من الأنبياء""٣٠ "

تعقيبٌ أوّليّ:

هذا النّصّ الإعجازيّ -في حال صحّته- ينقض نظريّة الإعجاز، ويؤكّد أنّ "النّطفة الأمشاج" كانت معروفةً في زمنٍ سابقٍ لسؤال اليهوديّ للنّبيّ الكريم محمّد-صلّى الله عليه، وسلّم-، وأنّها من معارف ذلك الزّمان!

النّصّ الثّاني:

"النّطفة هي الماء القليل، ولو قطرة، وهي تُطلق على منيّ الرّجل ومنيّ المرأة، وفي الحديث: من كلٍّ يُخلق، من نطفة الرّجل ونطفة المرأة"رواه مسلم. وقد سمّاها المولى نطفةً أمشاج، قال -تعالى-:" إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه" (الإنسان-٢)
وتُعرف في العلم بالبويضة الملقّحة بتطوّراتها العديدة "الزيجوت" "٣١"

ثالثًا: مناقشة وجهة نظر الإعجازيّين: السّياق العلميّ هو: نطفة مذكّرة + بويضة مؤنّثة = بويضة ملقّحة، وهو واضحٌ وبسيطٌ لا يقبل التّأويل.
وكلمات "النّطفة" و"البويضة" و"البويضة الملقّحة" هي مصطلحاتٌ علميّةٌ مضبوطةٌ جيّدًا، ومعرّفة تتوافق مع بيولوجيا التّكاثر.

لنبحث عن السّياق القرآنيّ:

أشارت الآيات القرآنيّة العشرة الّتي سبق ذكرها أنّ خلق الإنسان تمّ ابتداءً من "نطفة". وقد جاءت هذه الإشارة في سياقاتٍ أربعة:

أوّلًا: إشارةٌ عرضيّةٌ، أي: أنّ خلق الإنسان كان من نطفةٍ دون تفاصيل أخرى ومثالها:

"خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُو خَصِيمٌ مُبِينٌ"٤"النّحل.

ثانيًا- إشارةٌ لمصدرها الذّكريّ، فهي نطفة من المنيّ ومثالها:

"أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى" "٣٧" القيامة.

ثالثًا- إشارةٌ ضمن صيرورة الخلق، أي: النّطفة كإحدى مراحل الخلق ومثالها:

"فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ""٥" الحج

رابعًا- إشارةٌ بصفتها نطفة أمشاج، ومثالها:

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا"٢" (سورة الإنسان).

opelkandil.com

ولنتساءل الآن: اعتمادًا على السّياق القرآنيّ فقط؛ حيث إنّنا نفترض وجود سياقٍ قرآنيٍّ يوازي السّياق العلميّ في موضوع التّكاثر البشريّ، وهذا الافتراض سندعم وجوده مرحليًّا؛ ليتسنّى للقارئ لاحقًا التّعرّف على تعثّر الحصول على سياقٍ قرآنيٍّ يتناول موضوع التّكاثر البشريّ من وجهة نظرٍ علميّة.

وهذا كما ذكرتُ سابقًا ليس عيبًا أوتقصيرًا في القرآن الكريم، لكنّه قصورٌ من الإعجازيّين وإساءة استخدامٍ للقرآن الكريم.

لنتساءل:

هل النّطفة في القرآن = النّطفة في العلم؟

وهل النّطفة الأمشاج في القرآن = البويضة الملقّحة في العلم؟

_الإجابة على السّؤال الأوّل: هل النّطفة في القرآن = النّطفة في العلم؟

دلالة النّطفة في القرآن لا تتّفق مع ما هو مستقرٌّ حاليًا بكونها -النّطفة- حيوانًا منويًّا؛ حيث إنّ توصيف الحيوان المنويّ بالنّطفة توصيفٌ اصطلاحيٌّ من المستحيل البحث عنه أو تأصيله قبل اكتشاف الحيوانات المنويّة في السّائل المنويّ من قبل أنتوني فان ليفينهوك ١٦٧٧ م؛ فالنّطفة -في لغة العرب- اسمٌ مرادف للمنيّ بالمعنى.

وفي الحديث النبويّ:" قال لأَصحابه: هل من وَضوء؟ فجاء رجل بنُطفةٍ في إدارة؛ أَراد بها ههنا الماء القليل، وبه سمّي المنيُّ نُطفةً؛ لقلّته." "٣٢"

فتسمية الحيوان المنويّ بالنّطفة تسميةٌ اصطلاحيّةٌ، وعلاقة الدّال "النّطفة" بالمدلول "الحيوان المنويّ" علاقةٌ اعتباطيّةٌ -كما معروفٌ في علم اللسانيّات- ، فنستطيع افتراض أن يطلق واضعو المصطلح "النّطفة" المُترجم أساسًا من الإنجليزيّة والفرنسيّة - اسمًا آخر ليكن X.

الإعجازيّوون يستخدمون حيلةً لغويّةً تُوحي بالمماثلة بين دلالة "النّطفة" -كما وردت في السّياق القرآنيّ- وهي دلالةٌ متداولةٌ في لغة العرب المواكبة زمنيًّا لبعثة النّبيّ محمّد-صلّى الله عليه، وسلّم- وبين دلالتها الحديثة كـ" حيوان منويّ".

وحتّى لو تجاوزنا افتراضًا النّقد السّابق الّذي قدَّمتُه؛ فإنّ هذا سيوقعنا في إرباكاتٍ تتعارض مع الحقائق المثبتة علميًّا.

كيف ذلك؟!

لنفترض أنّ النّطفة في القرآن = النّطفة علميّا

فعندئذ الآيات القرآنيّة العشرة تخبرنا أنّ خلق الإنسان قد تمّ ابتداءً من "النّطفة" المذكّرة.

وهذا يتنافى مع الحقائق العلميّة حول موضوع التّكاثر البشريّ؛ فالنّطفة مساهمةٌ كشريك في عمليّة الخلق، وليس الخلق يتمّ ابتداءً منها، أو مرورًا بها، إذا أخذنا بعين الاعتبار مرحلة الخلق من "تراب"، وهي فرضيّةٌ أخرى لسنا في سياق التّعرُّض لها من النّاحية العلميّة الآن.

_الآيات القرآنيّة تعرض أنّ خلق الإنسان قد تمّ من النّطفة، والنّطفة هي نتاجٌ ذكريٌّ بقرينة آيتين قرآنيّتين سبق الإشارة لهما، وهذا منافٍ للبرهان المثبت علميًّا. وسيكون مادّةً سهلةً للتّشكيك في مصداقيّة وجود سياقٍ علميٍّ في القرآن أو مادّةٍ سهلةٍ للتّشكيك في القرآن بحدّ ذاته إذا أصرّ الإعجازيّون على عدم الفصل بين السّياق العلميّ والسّياق العقائديّ.

-أجد من الضّروريّ مناقشة انتقادين شائعين:
الانتقاد الأوّل: أنّه قد تمّ الإشارة إلى أنّ خلق الإنسان قد تمّ ابتداءً من "نطفة أمشاج"، وهي من وجهة نظر الإعجازيّين = "البويضة الملقّحة".

التّعقيب: وجود الإشارة إلى "النّطفة الأمشاج" في موضعٍ واحدٍ من القرآن لايكفي للزّعم أنّ خلق الإنسان قد تمّ ابتداءً من "النّطفة الأمشاج" كروايةٍ قرآنيّةٍ، إذ يجب الإشارة إليها دائمًا أينما وردت في السّياق القرآنيّ، أي: استبدال كلمة "نطفة" بـ"نطفة أمشاج" وهذا مالا نجده في النّصّ القرآنيّ، أو افتراض أنّ "النّطفة " = "النّطفة الأمشاج" وهذا مناف للبرهان؛ فهما تعبيران غير متطابقين.

هل النّطفة الأمشاج في القرآن = البويضة الملقّحة في العلم؟

إنّ فهم دلالة النّطفة كحيوانٍ منويٍّ أو بويضةٍ أنثويّةٍ مغالطةٌ علميّةٌ ولغويّةٌ، وقد سبق تبيان ذلك، وكذلك توصيف النّطفة "القليل من المنيّ" بكونها "نطفة أمشاج" أي: نطفةً مختلطةً مغالطةٌ، وقد سبق تبيان ذلك أيضًا.

إنّ صفة الأمشاج تحتمل وجهتين من الدّلالة ذكرها المفسّرون:

- الأولى:"الأمشاج: اختلاط ماء الرّجل بماء المرأة" ابن كثير.

- الثّانية: "هي ألوان النّطفة، وقيل: أخلاط الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء، والنّطفة أريد بها الجنس" ابن حيّان في البحر المحيط.

ولذلك إنّ الزّعم بوجود إشارةٍ قرآنية لخلق الإنسان ابتداءً من البويضة الملقّحة تحميل ما لا يُحْتَمل، وهو إسقاطٌ تعسّفيٌّ لنظريّاتٍ علميّةٍ على لغة القرآن الكريم ليس أكثر.

الانتقاد الثّاني: ويُعبِّر عنه زغلول النجّار"٣٣" مدعَّمًا بمرويّةٍ منسوبةٍ للنّبيّ الكريم محمّد-صلّى الله عليه، وسلّم-.

openkandle.com

"النّطفة هي الماء القليل ولو قطرة، وهي تُطلق على منيّ الرّجل ومنيّ المرأة، وفي الحديث: من كلٍّ يُخلق، من نطفة الرّجل ونطفة المرأة "رواه مسلم".

التّعقيب:

إذا كانت النّطفة هي الماء القليل ولو قطرة، فنطفة الرّجل "منيّ الرجل" هي السّائل المنويّ ذو الكمّيّة القلية والمساهم في عمليّة الخلق من خلال الحيوان المنويّ الّذي يقوم بفعل اللقاح.

أما نطفة المرأة "منيّ المرأة" فهي المفرزات الّتي يفرزها فرج ومهبل المرأة إبان الإثارة الجنسيّة، وهي لا تساهم في عمليّة الخلق كونها تلعب دورًا مساعدًا في الاتّصال الجنسيّ.

وأما البويضة الأنثويّة -وهي اكتشافٌ علميٌّ لم يكن متاحًا حينئذٍ- فلا تنطبق عليها دلالة نطفة المرأة كونها كائنًا مجهريًّا يستقرّ في الرّحم قبل اللقاح، ولم يكن معروفًا في زمن بعثة النّبيّ الكريم محمّد-صلّى الله عليه، وسلّم-، وطالما أنّ الرّواية المنسوبة للنّبيّ - على فرض صحّتها- لم تستثر فضول مستمعيها آنذاك، ولم تحرّضهم على طرق استفساراتٍ أخرى، ولم تشكّل حافزًا؛ لتكوين فرضيّةٍ عن الخلق من النّاطقين بالعربيّة والمشتغلين بالتّفسير والطب من المسلمين، ممّا يرجّح كونها تطرح معاني ودلالاتٍ متداولةً ليست جديدة.

obeikandi.com

وتعبير"نطفة المرأة " أو"منيّ المرأة" لم يرد في النّصوص القرآنيّة الإحدى عشرة الّتي تناولت موضوع الخلق، ولم ترد أيّ إشارةٍ إلى دور المرأة في عمليّة الخلق ممّا يؤكّد عدم وجود سياقٍ علميّ لتناول موضوع الخلق والتّكاثر البشريّ، وكونها وردت في سياقٍ عقائديٍّ غرضه التّذكير بعظمة الخالق والمآل الأخرويّ للإنسان.

obeikandl.com